

الباب الاول

انجلترا في القرن التاسع عشر

العصر الذهبي الانجليزي

يعتبر كثير من المؤرخين أن العصر الذهبي الذي كان له سلطانه وتأثيره على الفكر الانجليزي هو من غير شك العصر الفيكتوري بعظمته وقوة اشعاعه . فقد استكملت فيه الأمة الانجليزية جميع ما كانت تصبو اليه امة أرادت أن تنبوا مكانا ساميا تحت قرص الشمس . . .

وهل ينسى القارىء عصر جلادستون وبامرستون ودزرائيلي ؟ !

أو ينسى معاهدة باريس ، ومؤتمر لندن « ١٨٧٨ » أو بمعنى أصح النصر الدبلوماسي لانجلترا والانجيز ؟

المعاهدتان اللتان توجتا رأس الأسد البريطاني باكليل من غار ، وأظهرتا انجلترا كامة خالدة لا يشق لها غبار في عالم الدبلوماسية والدهاء ؟ !

كان النجاح حليف انجلترا ، ورائد ملكتها فيكتوريا التي حكمتها حقبة طويلة . وكان الله قد قيض لانجلترا في ذلك الوقت رجالا وشخصيات تاريخية مثالية نادرة عدم منها العصر الازلي يابتي على جلالته قدره ورفعة شأنه ، اذا ما حاولنا أن نقارنه بالعصر الفيكتوري أو العصر الذهبي الانجليزي !

وها نحن اولاء نرى أنه من الواضح الجلي أن نذكر بعض هذه الشخصيات

التي أثرت تأثيراً بالغاً في هذا العصر ، وطبعته بطابع الخلود عن غيره بما سلف من عصور. فترى مثلاً تشارلس ديكنز وقد توج هامة الأدب برائع إنتاجه وآثاره. ونرى دارون وقد توج هامة العلم بفيض أبحاثه ونظرياتة، ونرى أرفنج وقد نهض بالمسرح نهوضاً لم يسبق لمثله أن نهض به في أي عصر سابق أو لاحق. ثم نرى أخيراً مجموعة طيبة من عظماء الرجال والفلاسفة كسبنسر ورسكن ومل. وكل له اليد الطولى في تهذيب الفكر وتمحيصه بشتي مآثر كوده وراهم، وما نادوا به أيام زهوهم وقوتهم من آراء في الكون والوجود.

ثم لا يفوتنا أن نذكر ثلاثة من كبار السياسة الدهاة هم لاشك شوردون وواسلي وروبرتس. هؤلاء الذين لعبوا دوراً بل أدواراً جبارة فربحوا المعارك الطاحنة في القارات الثلاث المعروفة!

كان العصر الفيكتوري إذن طامحاً بأمثال هؤلاء الرجال الخالدين الذين ضربوا بسهم وافر كل في دائرة اختصاصه. فسموا وارتقوا ببلدتهم سمواً ورقياً لا مزيد عليها، وحاز كل منهم من الشهرة البعيدة والخصيت الأوفر ما جعل إنجلترا تتعالى وتشمخ بأنفها، وتطغي وتتكبر على غيرها من بلدان العالم وشعوبه.

ولكي نعرف مدى تأثير وخلود هذا العصر عن غيره من العصور السابقة علينا أن نستعرض مثلاً القرن السادس عشر أو السابع عشر. فنخرج من بحثنا أن العصرين كانت الحياة فيهما بسيطة بل كادت تكون هادئة يتسلط عليها القديسون والمنجمون والشعراء والفنانون. تحاول كل فئة أن تنهض بالناس وتحثهم على أن يسلكوا طريق السلام والمعرفة ولكن في رزاة وبطء وهدوء.

وكانت كل هذه المحاولات بلا شك دلائل تبشر بانبثاق فجر جديد يجمع بين الحضارة والعلم والعرفان، ويقضي على خرافات الأجيال، واشباح

الماضى الخفيفة المرعبة . فهبت على انجلترا في أوائل القرن التاسع عشر عواصف هوجاء عاتية صاخبة، تمخضت عن النصر لخالد في معركة « واترلو » وبرزت الأمة رجلين خالدين هما ولنجتين ونلسون !

ثم كانت الثورة الفرنسية التي وثبتت عدواها من بلد الى بلد في عام ١٨٤٨ ولكنها على كل حال لم تهز انجلترا أو تقمطع حجرا واحداً من احجار بنائها التاريخي الصامد العتيق . بل ماتت فعلا محاولات « اوبرين » الثورية وانمحت من الذاكرة والخيال ، وأصبحت نسبياً منسياً — اى تلك المحاولة التي يقول عنها السير وليام واطسون « غبار التصادم المندثر . . »

إذن فلم تؤثر عوامل الأرهساب في نفوس الانجائين . بل وما كادت تلك المحاولات تموت في غمرة اليأس ، حتى عاد المجتمع الانجائى الى هدوئه وسكينته ، وعادت حياة العائلة الى ما كانت عليه قبلا من استقرار . وكانت رغبة الناس جميعاً أن يعيشوا عيشة ناعمة لابلية للخواطر فيها . وحتى الملكة نفسها كانت تطمع فيما كان يطمع فيه شعبها من حياة الرغد والسعد . .

ولعلنا اذا استعرضنا بعض ما يقوله بانسون — الكاتب الانجائى المعروف — عن هذا بالذات لوجدناه فى أكثر من مناسبة يقول « كلكمة وربة بيت كانت حياتها تقوم على قواعد البساطة ، فهى تكرر كل تصنع وتكلف . لاهمها البحث وراء مشاكل الطبيعة البشرية ، ولا البحث وراء الهوائف والدواعى والدوافع التى تدفع المرء الى احتراف الفن أو الموسيقى مثلا بسيطة ومخلصة فى عقيدتها التى تدين بها وقد ربت أبناءها على الحكمة وخوف الله وخوفهم منها أيضا . . . »

وكان حكم الملكة فيكتوريا على الاجمال أقوى حكم عرفه التاريخ الانجائى فقد كانت الملكة خيالية الى أبعد درجة . أما سياستها وعاداتها الشخصية فكانت مناسبة أو بمعنى آخر معتدلة . تحترم الطبقة المتوسطة التى اعتبرتها هى القوة الاصلية التى تركز عليها دعائم حكمها . ولم تكن الملكة بالساذجة

أو البسيطة . فقد اختارت حاشيتها من رجال الارستقراطية . وبذلك
تحاشت الدخول معهم في مشاحنات ومنازعات لا طائل من ورائها . .

وبما يدلك على مدى تقدير الانجليز لهذه الملكة العظيمة ، أنهم ما كادوا
يقيمون الحفلات لعيدها « الخسني الماسي » حتى كانت الأمة بأسرها في
غبطة وفرح يعسر وصفها . بل ويقول شاهد عيان أن ميناء « سبتهد » كان
مزدحماً بالسفن والمراكب الشراعية الى مسافات بعيدة ، بل يكاد يقول الى
اميال . فامراء من الهند ، وسفراء من مختلف بقاع العالم ، ومندوبون عاديون
وغير عاديين من كل حدب وصوب . الكل يحتفل ويجد ذكرى تلك الملكة
العظيمة التي تركت أكثر من اثر نابض في عروق الأمة الانجليزية . .

شعور دافق ، وحماسة منقطعة النظير ، وهتاف من الاعماق . وتبجيل
وتقدير من الصحف السيارة ، على اختلاف انواعها وتباين نزعاتها ، الجرائد
تسهب الكتابة عن العصر الفيكتوري عامة ، وعن العصر الذهبي الأدبي خاصة .
ف مقالات طنانة عن الدراما ، وعن الادب الواقعي . بل ولقد ذهب بعض
الكتاب الى أبعد من ذلك فقارن العصر الفيكتوري بالعصر الاثيني الزاهر
أي عصر الانتاج والنشاط . . . ولا بد أن كل عصر من عصور الانتاج
قد أعقبته فترة خمول لم يسلم منها ، ففي أئتنا مثلاً بعد ازدهار الدراما
ونجاحها نجاحاً فائقاً ، هبطت مقياسها وارتفع بدلا منها مقياس الفلسفة
ثم الخطابة . . وفي اسبانيا أيضاً كان خمول الرواية ملحوظاً ، بل كاد يكون
ثابتاً لا أمل في علاجه ، وفي فرنسا اي في عصر لويس الرابع عشر كان هناك
تفكك في مقياس النهضة . . وارتفاعاً في ناحية والمخفاضاً في ناحية أخرى . .

دعنا نستعرض بعض اخبار الثورة الفرنسية ، فقد لعبت دوراً كبيراً
في مقياس الأدب الاوربي على وجه عام ، والأدب الانجليزي على وجه
خاص . وفي استعراضنا لحوادث الثورة مقارنة طبيعية بين فترتين هامتين ألا
وهما : عصر الثورة ، والفترة التي تلتها بعد هبوط حماسيتها وقوتها . فلا ينكر

انسان أن الثورة كانت لاوروبا على الاجمال في الحياة العامة وفي الأدب .
ولا كثير من عشرين عاما كان السيف مساولا يهدد اوربا بالدمار والحراب ،
ويبرز من أركان الممالك والقارات . ومن المحقق أن الحرب في ذاتها قد لا
تكون منتجة . ولكن « دى توكينيل » اثبت في براعته المعهودة أن الآراء
السياسية لها خطرها ومغزاهما — وهو يقصد تلك الآراء التي ألهمت
الحماس في نفوس الثوار ودفعتهم الى اكتساح المعارك الدامية الطاحنة في
غير مبالاة ...

ولكننا اذا نظرنا الى الامام جيلا بأكمله فاننا نرى عن بصيرة أكثر من
عامل واحد لفشل الثورة فشلا تاما . ويدلنا على ذلك انه في عام ١٩١٥
خاضت الممالك وقاست الأمم أسباب المجاعة والفقر وقصر اليد ، وتحطمت
آمال الشعوب ، فأصبح الكل وجلا خائفا مزعزع الثقة حتى في نفسه . .

وإذا أجملنا آراء « دى توكينيل » من جديد في الثورة فقد يعتقد
كثيرون أنها لاتزال حية ، ولكن الواقع انها منيت بالفشل الكامل وغاب
شبح الحرية والمساواة وذابا في ضوء النهار .

ولم تقاس انجلترا مثلبا قاسته اوربا من جراء الثورة والانقلاب فلم
تشعر بضغط السلاح يكتم انفاسها أو يخرب أرضها ، بل كانت ناجحة الى
حدها في تجارتها وسياستها على السواء !

ولكنها على كل حال لم تسلم من رد الفعل الذي كان شديدا عليها بعد الحرب
فالاسعار مرتفعة ، والتجارة كاسدة ، والحالة سيئة في المصنع ، لا قانون محدد من
قسوة أصحاب المصانع ، ولا قانون يحمى الجنس البشري أو العامل من القناء ...

وكانت الحالة اجماليا تبشر باندلاع حرب أهلية إن لم ينقذ المصلحون
بلدهم من تيارات التدمير والغضب المدفونين في النفوس ...

ولكن هبوط وصعود مقياس الأدب في كل أمة من أهم العالم امر

أصبح شائعاً وعماماً . فظاهرة الفشل أو النجاح من الظواهر المسلية والمشجعة على البحث والاستقصاء ، لا سيما في بلد كإنجلترا يمتاز عن غيره بالرزانة والهدوء في التفكير والوصول إلى الحقائق بعد الخبرة والصبر والمران ...

ففي إنجلترا مثلاً إذا حاولنا أن نعلل أسباب فشل الأدب أو نجاحه ، فاصح ما يعتمد إليه المؤرخ أن يذكر مثلاً تاريخ الفترة التي مات فيها هيوم وجونسون و آدم سميث و جيبون وبروك . فقد ماتوا جميعاً في فترة لا تتجاوز عشرين سنة . وعمرتهم هبطت مقياس الأدب هبوطاً سريعاً بانتهاء القرن الثامن عشر . ولكن هذه الحسائر الفادحة لم تكن لتجعل ترمومتر الأدب هابطاً على الدوام . فقد ولد «وردسورث» و «سكوت» و «كل بلدج» قبل موات الفئة الأولى . وولد بايرون وشيلي و كيتس قبل موات الرجل الأخير ...

فأعمال هؤلاء الرجال جميعاً قد توجت إنجلترا بأكثر من إكليل غار في الرواية وأدب الثورة . وهناك فقط اتصال بينهم جميعاً قد يندر أن يكون موجوداً بين رجال الأجيال السابقة .. فقد كانوا رغمًا عنهم أبناء الثورة وافكار الثورة كانت تلهب ادمغتهم إبان حركات الانقلاب ...

وإذا نظرنا من وراء جسر من الزمن يعبر خمسين عاماً بعد هذا التاريخ فإننا نجد النظام القديم وقد تبدل وتغير . ففي السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر ماتت الحركة الناشئة من عدوى الثورة الفرنسية سريعاً ..

مات كيتس عام ١٨٢١ و تبعه شيلي عام ١٨٢٢ و بايرون عام ١٨٢٤ بعد أن أكمل كل منهم عمله على خير ما يكون .

وفي عام ١٨٢٢ مات سكوت في إنجلترا وجوته في ألمانيا وسويفر في فرنسا عام بعد مات هيغل وهؤلاء جميعاً أثرت آراؤهم وافكارهم على القرن التاسع عشر تأثيراً كبيراً ..

ولكن السنوات ما بين ١٨٢٥ و ١٨٤٠ كان الانتاج فيها مرموقاً وإن

لم يكن في قوة إنتاج بايرون أو نثر سكوت وشيلي وكيثس ومس اوستون أو كلريدج ووردسورث . ومهما يكن من أمر فإن لمعان عام ١٨٢٥ .
ينبها إلى أنه قد بذرت فيه بذور الأدب الرفيع لأوائل العصر الفيكتوري
الذهبي .

فبنحوض هذا الأدب علينا أن نقدر أهمية الاعوام التي تلتها . . . ومن
المسلي أن نلاحظ أن الرجال الذين محصوا الفكر في انجلترا في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر كانوا على دراية واسعة بعلم السياسة . فقد ظنوا أن
الثورة الفرنسية فشلت ولكن بعضهم مثل كارليل لم يعترف بنفسيها . وعبر
عنها آخرون مثل تينسون بذلك القول المأثور . . . « رعونة اهل السين
وطيشهم !! » . . .

وعبر عنها غيره بأنها « إعلان مقدس » وقد تجملت قوة هذه التعبيرات
في اشعار كلريدج، ووردسورث، وفي كتابات شيلي، وفلسفة جودوين . . .

بينما ظهرت الثورة في أعين آخرين كأنها قوة شيطانية أو جهنمية كما جاء
في كتابات سكوت وبروك . ولكن قبل نهاية ربيع القرن الأول تغير كل هذا .
فكان هناك مثالا كثيرون لم يتفقوا مع بروك في أن الثورة قوة جهنمية
وكان هناك قليلون يعتبرونها « إعلان مقدس » فكان هذا الصراع يستدعي
الدراسة والنقد .

فالنصر الذي حول انجلترا عن دفعة الخطر جعل الرجعيين ركزون
خطواتهم بعض الشيء . ويهمننا في كثير أن نذكر أن تيارات التجديد في
الأدب الإنجليزي اخذت تصل الى درجة لا بأس بها . فشلا نرى ان « لسي
هنت » الناقد المشهور سجن من عام ١٨١٣ الى ١٨١٥ لانه بعض احوال
احد الامراء المعاصرين له . وقد سيق الى السجن لان المضامح التي ذكرها كانت
صحيفة . ثم محاكمة ريتشارد كارليل لنشره اعمال « توماس باين » التجديفية
عام ١٨١٩ . ثم محاكمة توماس بولي عام ١٨٥٧ . . .

ولذا بذل هكسلي وغيره مجهوداً جباراً للحفاظ على آرائهم وحريرتها .
فالتعصب هكذا أن يقوم على قدم وساق باسم العلم والدين كما كان في القرن
التاسع عشر الإنجليزي . .

وكانت حالة الأدباء تستدعي الإشفاق . فكان كارليل مثلاً وهو في
عامه الخامس والأربعين يعيش عن طريق محاضراته . ولو لم يكن
دارون يمتلك ثروة ضخمة لما كرس وقته للعلم . وحتى براوننج الشاعر لم
يربح كثيراً من كتاباته الأولى لعدة سنين . وحتى آرنولد أيضاً كسب
قليلاً جداً طوال جهاده وكفاحه من أعماله الكثيرة . في حين أن تفتيسون
الشاعر الشعبي كان مضطراً إلى أن يوقف علاقاته مع اميلي سولوود لأنه
لم يكن يقدر على الزواج منها لقصر يده .

وهكذا كان . ففي ابتداء الفترة كان حال الشعر منحطاً . والشعر
زهرة الأدب كما هو معروف .

وكانت سياسة الناشرين إبان هذه الفترة أيضاً ألا ينشروا شيئاً أولاً
لكاتب ما . ونضرب على سبيل المثال « موري » الذي وضع هذه السياسة
قانوناً لا يجيد عنه . وفي عام ١٨٤١ كتب جون سترلنج إلى امرسون يقول .
« انه ليس هناك رجل واحد تستحق كتاباته مصاريف النشر . . . »
وكان سترلنج مخطئاً لا شك في ذلك . .

في حين أنه بعد هذه الفترة كان « مارتين توبر » مثلاً يكتسب من
خمسائة جنيه إلى ثمانمائة جنيه من كتاباته الفلاسفية . بل ودفع الشعب الإنجليزي
عشرة آلاف جنيه لكتابه « روح الحكمة » .

وكل ثورات الفكر ، او انقلابات الأدب جاءت عن طريق هؤلاء
الأدباء والعباء الذين كانوا يمتلكون ثروات ضخمة . فالأدب في كل العصور
يعيش على الأفكار أو يموت من قلتها . وإذا كان للأدب علاقة بالسياسة

فلاشك أنه أكبر علاقة بالدين والفلسفة . ولكي تفهم العصر الفيكتوري على صحته علينا أن نبحث عن نقط التشابه والاختلاف بينه وبين العصور السابقة له . ودراسة عابرة للآراء الدينية والفلسفية التي عاشت عليها هذه العصور، وعاش عليها القرن التاسع عشر على تنوع خاص، كقضية بأن تأتي بالمقسود . فن الناحية الدينية نجد أولاً أن علاقة العصر الفيكتوري بعصر الثورة كان مسلياً ومثيراً في آن واحد . فعلم السياسة مثلاً كان عرضة للهوان . فوجهات النظر السياسية التي ورثتها القرون عن غيرها من القرون السابقة كان لها عليه أكبر اثر . ففي العصر الفيكتوري كانت المدرسة العقلية هي السائدة ، متغلبة على الافكار التي تدرجت من وراثة الاعتقاد بالله وانكار الوحي والأنظمة الدينية مع رجوع فعل المذهب الكاثوليكي الذي اعلن عن نفسه في أول القرن التاسع عشر والذي لا يزال تأثيره قوياً !

فالخلاف الذي نشأ بين هذين المذهبين يجعل العصر مشيراً للدهشة والاستغراب في تاريخ الأدب الإنجليزي للقرن التاسع عشر . . . ولم يشهد القرن التاسع عشر مع هذا تضاد المذهبين . كما شهد من قبله القرن السادس اليوناني - قبل المسيح - مثل هذا التخبط بين عدة مذاهب . فقد شهد عصر سولون مثلاً ابتداء مذهب العقلية . وذلك لعدم رضاه النفس بنظرية هزيود عن أصل العالم فأباحث ولادة الفلسفة الأيونية .

إذن فن الثابت انه في ابتداء القرن التاسع عشر ، تسال المذهب العقلي . . فييوم بمنطقه السليم ، وجبون « ملك السخرية » وفولتير بفكاهته النادرة وصراحته وسخريته . . هؤلاء جميعاً كانوا عناصر أصلية للقرن الثامن عشر وأصبحت الثورة الفرنسية من كفاحهم ومجدهم . . .

وطغت على القرن التاسع عشر من أوله إلى آخره عدة تيارات مختلفة تركت آثاراً كثيرة في كل ناحية من نواحي نشاطه . . في الدين والسياسة والأدب والصناعة والاقتصاد . . .

استعراض عام لتاريخ الرواية في القرن التاسع عشر

الأدب الأيرلندي

كانت روايات « وافرلي » أهم روايات ظهرت في تاريخ الرواية على وجه عام ، أو في الفترة بين عصر فيلدنج وديكنز وثاكري على وجه خاص . . . وكان الفضل يرجع في ذلك إلى آثار سكوت وما تركه من درر ونفحات . . . وحتى بلزك أحد هؤلاء الذين لمسوا عن صدق تأثير سكوت وإن لم يعمل على تحسين الرواية أو النهوض بها . وكل ما تركه آثاراً ضعيفة جداً لا تقارن بما تركه سكوت . ولما كان مع هذا حول الرواية إلى ناحية أخرى هامة ، ألا وهي أن رواياته كانت خليطاً من العاطفة الممزوجة بالذوق السليم أو الحقيقة ممزوجة بالخيال . أو الهزل ممزوج بالجد . . .

ومدارس تاريخ الروائيين في إنجلترا وأمريكا وفرنسا وفي كل مكان آخر كانت تعتبر من غير استثناء خاضعة لتأثير مدرسة سكوت عليها جميعاً . وليس من المغالاة في شيء أن نقول إن الرواة الأيرلنديين أنفسهم الذين ظهروا بعد مس ادجورت وليدي مرجان كانوا أيضاً تلاميذ سكوت . . . وقد صرح سكوت نفسه مرة أن روايات مس ادجورت هي التي اضطرتته إلى أن ينتجى بالرواية ناحية يخدم من ورائها بلاده كما فعلت هي . . . أما الرواة الذين ظهروا بعدها لم يقلدوها أو يسيروا على نهجها بل كان تأثيرهم بسكوت أكثر وأعم . . . فعمدوا جميعاً إلى أن تستمد الرواية وقائعها من صميم حوادث بلادهم أو بمعنى آخر تدور حول الصراع القائم بين الإنجليز والأيرلنديين ، تماماً كما فعل سكوت . فكان بانيم وجربفن وكارلتون ولفر وليفن من تلاميذه من غير استثناء . وكما حدث في روسيا في عهد القيصرية فإن الرواية كانت سلاحاً ذا حدين في الثورات السياسية . . .

وكان النصف الأول من القرن التاسع عشر ربيع الرواية . ولم تسكن القصص الخيالية فرعا من فروع الأدب فحسب . بل كانت طريقا لكسب العيش . ويقولون إن دخل بعض الكتاب في هذه الفترة بالذات كان كبيرا إلى درجة بعيدة . وكان سوق الرواية ناجحا . ومع ذلك أيضا فقد لزم النحس وسوء الطالع بعض الكتاب . فمثلا كتب كارلتون روايات متواضعة في حين أن عبقريته لم تتجلى إلا في كتاباته الدراماتيكية . وكان حال الرواية في إنجلترا تماما كما كان عليه في أيرلندا . فان الأيرلنديين كانوا يعتبرون الرواية كنوع من أنواع الدعابة . وإن كانوا لم يهينوا الأدب أو البيان ذاته أهمية كاهتمامهم بالحقائق والتاريخ والواقع ...

وابتدأت المدرسة الأيرلندية للروائيين نشاطها حوالي عام ١٨٢٥ عندما طبع « اخوان بانيم » أول قصصهم لعائلة أوهارا . وكانت الكاتبة المعروفة ماريا أدجورت انجليزية أكثر منها أيرلندية . فلم يكن ليحتملها الأيرلنديون كواحدة منهم بينما كانت الليدي مرجان الأدبية الأيرلندية الكبيرة بين بين ..

وكل ما مهمنا قوله أن اخي بانيم كانا من طبقة الفلاحين . وفسرا المشكلة الأيرلندية كما يراها الفلاحون الأيرلنديون . وكان جون أحد الأخين متشابها تشبهه برعونة الجنس السلتى فكان يطرق ناحية العنق باستمرار . وقد اشترك الأخان معا في كتابة الرواية الحماسية وكانا ابنين لفلاح لم ييخزل علمهما بالتعليم . وكان جون بانيم في بدء حياته مدرس رسم في مدرسة صغيرة بقرية وكسأت حياته سلسلة من أشواك وأمراض ، ولكن نجاح قصص أوهارا جاء متأخرا ، أي بعد وفاته في الرابعة والأربعين من جراء شلل اتت به . واستمر أخوه « ميشيل بانيم » يتهم ما لم يتممه ، أخوه فأخذ يدرس القانون ، ويكتب الروايات التي لا تزال تحظى بمكانة ممتازة في الأدب الأيرلندي المعاصر

ثم يحيى دور الروائي جerald جرين . كاتب الفلاحين أيضا ، بالرغم

من انه لم يأت من حظائهم . وكان جريفن شاعراً ثم روائياً ممتازاً . وكان يسرف كأخوان بانيم في سرد التاريخ الخيالي . لقد أحب جريفن الفلاحين ودافع عنهم دفاعاً مجيداً في كتاباته وتبعه كثيرون أمثال ماكسول وانا مارييا فيلدينج « الأنجليزية الايرلندية » ثم وليم كارلتون اعظم كتاب عصره . فقد ترك وراءه درراً ونفحات طيبة في أدب الرواية الايرلندي . وما هو جدير بالذكر أن كارلتون في بدء الحركة الايرلندية كتب ثلاث روايات يطلق عليها مقسمو العصر الايرلندي « روايات الغرض » وفيها تحلل لنسا كارلتون مساوي الخمر والخلق وما يملأ عصره أو مجتمعه من أخطاء ثم يحيى بعده « وليم ماجنن » وهو أديب موهوب ثم « تشارلس ليفر » وهو من أصل انجليزي في حين أن أمه كانت ايرلندية صميمية . فبذات الكتاب الايرلنديين جميعاً وكانت رواياته كلها عن ايرلندا والايرلنديين . فقد عرفهم جميعاً ولكنهم لم يعرفهم عن دقة ! . . .

عصر ديكنز

تعمدنا في الصفحات القليلة الماضية أن نذكر طرفاً من تاريخ الرواية الايرلندية ، وذلك لكي يسهل على القارى مقارنتها بالرواية الانجليزية في الجزيرة البريطانية نفسها . أو بمعنى آخر ليقارن عصر ديكنز الانجليزي بعصر الرواة الايرلنديين الذين ذكرنا عنهم بعض اخبارهم . وليشهد بنفسه الفارق الكبير بين الاتجاه الروائى في الجزيرتين الايرلندية والانجليزية . .

فأول ما يمكننا أن نقوله عن ديكنز ، كما يعرف العام والخاص ، إن طابعت منه إحدى دور النشر أن يكتب لها عن مجموعة مختارة من صور ممتازة تجمعتها ونخرجها في كتاب واحد .

وكان هذا نصراً أدبياً كبيراً لديكنز من غير شك . ولكن هناك سؤال الا . عن تأثر ديكنز وإلى أى مدى اثرت عليه كتابات سلفه من الادباء

المشهورين امثال سوكوت و ثيدور هوك و مسز كاترين جور (١٧٩٩-١٨٦١)
وغيرهم كـثيرون ...

وكل ما يمكننا قوله أن ظروف طفولة ديكنز كانت كلها تدور حول
مرضه و فقد أبويه والصراع في سبيل العيش . اثرت كل هذه عليه وانطبعت
في ذاكرته حوادث صباه إلى آخر يوم في حياته .

ويقول كثير من النقاد أن أحوال فقره كانت سبب بلوغه إلى
قمة المجد والشهرة . وقد سماها البعض (بالعناية الالهية) وقد يكون هذا
القول صحيحاً إلى درجة ما . ولكن ديكنز ابتداءً ببداية مشرفة ونادرة .
وكان عمله الأول ناجحاً إلى درجة بعيدة . وكان من السهل أن يصبح
ديكنز روائياً المعيا بفضل مواهبه وقوة ارادته . وقد كان ..

وسر نجاح ديكنز اتاه عن طريق نجاحه في كتاباته الأولى « بوز »
وبيكويك و اقبل ديكنز على كتابة الرواية فصادف نجاحاً مرموقاً .
وعالج الازاما ايضاً ، وكتب عدة مسرحيات ولكنه لم يصادف نجاحاً
مثلياً صادف في كتابته الرواية . والسبب في ذلك يرجع إلى انه كان
شخصية ، الملدراما « إلى آخر درجة وقد لمس بنفسه هذا الضعف في مستهل
حياته الكتابية ولكنه لم يجد لها علاجاً ناجحاً فاهملها ...

وبدأ ديكنز كتابة قصته الخالدة « دافيد كوبرفيلد » وقرأها على زوجته
وولده . وعارضت الزوج وعارض الابن ايضاً في نشر القصة . ولكنها
خرجت للعالم تشهد ببراعة الاديب ديكنز وتخلد عبقريته على مدى الدهور .

وقصته « دافيد كوبرفيلد » ليست قصة حياة ديكنز كما يظن كثير من
الكتاب والنقاد ، ولكنها تعطينا تاريخ فترة مرت في حياة ديكنز الا
وهي فترة الصبا والشباب . وكيف كان الكاتب يعكس من حوادث حياته
صوراً تمثل واقع هاتين الفترتين بصدق وأمانة .

وهي كما يقول أكبر نقاد الأدب « نموذج حي لكتابة الرواية » ففيها مثلاً صهرت التجربة الشاب في مستقبل حياته فصمد للحوادث وتحدى القدر فتكون عقله وتغذى فكره بجميع الأشياء التي كانت تحيطه فأحسن تصويرها وأجاد وصفها . . .

ويقول ديكنز في هذه الرواية . . . (لم يزح أحد الستار بعد . . . ولكن رفعت لحظة في هذه الرواية بالذات . بيد حازمة ثم القيت به بانسراح . وتشابه هذه الحياة محز في نفسي ويؤلمني إلى درجة بعيدة . إجهاد فكري عنيف مضى ، وأمل ضعيف . فلم يكن عندي الشجاعة الكافية للتفكير في كم من الزمن يستغرق هذا المرقف المخرج . سنة أو أكثر لست أدري . . . وكل ما أعرفه انه كان . . . وتوقفت ثم كتبت وهناك تركتها . . .)

تأثر ديكنز في صباه بقراءات كثيرة أو بمعنى آخر بعدة كتب التهم محتوياتها التماماً غريباً . وهذه هي مجموعة الكتب التي قرأها ديكنز قبل مغادرته شامام إلى لندن . . . (الليالي العربية) و (قصص الجان) ثم كتب سمولت ثم فيلدنج وجولد سميث وسرفانتس ولوساج ودفور (روبنسن كروزو) وكان ديكنز معجباً بكتابات سمولت إلى أبعد درجة ، أكثر من إعجابه بكتابات فيلدنج . والفرق بين الكاتبين ملحوظ . ولكن ديكنز لما كبر كان يفضل سمولت . ولعل أسباب ذلك ترجع إلى أن قسوة سمولت كانت أسطورة كما رأها الروائي الشاب ، لو أنه كان قد سمع بها . أما السخرية والنقد اللاذع اللذان ظهرا لديكنز كانا مجرد ضحكات سمولت العادية . مختلفان عن الاحساس والرقّة اللتان كان يتمتع بهما أسلوب فيلدنج . ولم يتأثر ديكنز نفسه بعبقريّة فيلدنج ولم يماثله في كتاباته الهادئة المتزنة . ولسكنه كان على العكس تأثراً ، تحت تأثير عقده نفسية شديدة .

وأما عن جولده سميث فقد قرأ له « راهب ويكفيد » أولاً ثم أوقع بقصته « النملة وسكان العالم » وعن الجرائد التي جمعتها مكتبته فهي « المتحدث »

و « الناظر » و « الكسول » وغيرها من المجالات المسلية التي كانت تظهر في أيام صباه . كما تأثر كثيراً بقصص الاسفار . فنجد في روايته (بيكوبك بيرز) كثيراً من الجمل والتعبيرات التي تدلنا على مدى تأثره بهذه الرحلات والاسفار فيقول مثلاً (وكان الصبي يذرف الدمع سخينا عندما يقرأ الروايات المتعددة في صباه والتي كانت تملأ قريته وبلده من الشمال إلى الجنوب . .) كما وقع في طريقه كتاب هوليين المشهور (رقصة الموت) وغيره من الكتب التي أثرت على إنتاجه . . .

تأثير البيئة على إنتاجه

القراءة وقوة الملاحظة كانا يسيران جنباً إلى جنب في حياة ديكنز وعن التجربة والملاحظة الدقيقة يمكننا أن نقول انه قليل هؤلاء الكتاب الذين ينهون من مناهل التجربة والملاحظة من ينابيعها الاصلية . ولم يعرف انسان المدينة أكثر مما عرفها ديكنز . فقد عرف شوارعها كما عرف سطور وصفحات كتبه التي كاد يحفظها عن ظهر قلب .

ولا تخلو رواية من رواياته سواء كانت الأولى أو الأخيرة من دقة وصفه للمكان والزمان . ففي روايته (Uncommercial Traveller) بالذات يقف القارئ على كثير من دقة ملاحظته ووصفه الصحيح للازقة والشوارع والأشجار مما يدل على خبرته الواسعة في مضمار الوصف . .

قلنا إن ديكنز تأثر كثيراً بسمولت وفيلدنغ وجولد سميث . وعنهم نهل أصول كتابة الرواية . وطريقته في إجادة وصف الأماكن أخذها عن جولد سميث ولكن في براعة تفوق براعة جولد سميث . .

كما تأثر أيضاً بكتابه « واشنطن ارفنج » « ١٨١٩ » ويقولون إن لم يكن ديكنز قد تأثر حقيقة بصور ارفنج وكتابات براسبرذج « ١٨٢٢ » عن عيه

الميلاد . لما تسنى له أن يخرج تلك الكتب في هذين الموضوعين بالذات
بجوارعهما وبفوقهما جمالا وتسيقاً ..

وأثبتت الوقائع أيضاً أن ديكنز كان ملماً بقصص (هوك) وعرف
قيمة أسلوبه العالمي المشهور فقلده . ثم عن ثيودور ومزجه الحقيقة بالخيال
والسخرية بالعاطفة ، واجد بالهزل . قد يكون هذا كله قد أثر في إنتاجه
فانتجى نأحييتهم . . .

نموذج من كتاباته المصغرة

نجح ديكنز في كتابة الديالوج . ولعل أطرف وأحسن ما كتبه أيام
أن كان مخيراً لجريدة كبيرة صورة حقيقية للبرلمان . وقد نظر إلى مطبخ (بلاحي)
فعرف لساعته السر لماذا كان أعضاء البرلمان غير معروفين أو مشهورين لعدم
ترددهم على المطبخ المذكور . . . (كانوا دائماً يتناولون الطعام في منازلهم)
ولعل السبب الرئيسي في عدم نجاح الأعضاء الأيرلنديين يرجع إلى ما يذكره
(لماذا ياسيدى يذهب العضو الأيرلندي إلى هنالك ، ويتناول طعام ثلاثة
أعضاء انجليز ؟ انه لم يأخذ نبيذاً ، ولكنه شرب بيرة كثيرة : ثم ذهب إلى
منزله في مساكن ما نشستر أو شارع ملبانك ليحتسى الوسكى والماء ! !)

كما نجح ديكنز في كتابة قصص قصيرة في جملة واحدة ! ويكفيك أن
أن تقرأ قصص عيسد الميلاد فهي تطفح بهذه اجمل الطويلة التي تحتوي على
قصص قصيرة منفصلة كما تؤدي إلى هدف معين ومغزى دقيق . . .

أسلوبه

نجح ديكنز في كتابة الديالوج كما ذكرنا ، وأجاده إجابة شهدت له
بالبراعة المنطقية . وتزعم ديكنز هذه الناحية . فكون أسلوبه أو خلقه على
أحدث الأساليب . وجعل له أسلوباً خاصاً وطابعاً خاصاً يعرف بهما وقد

تفوق على الأساليب الحديثة بمهارته المعروفة فجاء أسلوبه سلساً نادراً عذبا .
لا التباس ولا ارتباك فيه . . .

وكان أساتذته الذين تتلمذ على أيديهم هم سمولت وفيلدينج وغيرهما .
وأكبر الكتاب أمثال « لي هنت » و« لامب » وفي مقالاته التصويرية عن « بوز »
يتضح ناحية أساتذته جونسون . .

كما أجاد ناحية الفكاهة . ولذا ترى مثلاً في روايته « بيكويك » كثيراً من
الملح النادرة وطريقته في كتابتها حسب وضعها موضوع إثارة كثير من
النقاد وإعجاب ملايين القراء به .

ولو حاولنا أن نحلل طبيعة الديالوج في رواياته الأخرى للسنا بأنفسنا
روعة البلاغة في كتابة « مارتن شازلويت » وسعة خياله وسحر بيانه ،
وتدقق الألفاظ والمعاني في أسلوب سهل هين يكاد يكون شعراً .

ولكل شخصية في كل رواية طابعها الخاص وتباين اختلافها عن
الشخصيات الأخرى . فالقوارق بينها جميعاً تكاد تكون شاسعة . وهذا
معناه أنه لا يخضع لفكرة واحدة وينوع فيها . بل كل رواية له ، لها بطل
خاص يشق طريقاً يخالف الطريق الذي يسلكه بطل آخر في رواية أخرى .

عقريّة ديكنز

من دراسة كتابات ديكنز ندس الفارق الكبير بينه وبين الكتاب
الأخرين السابقين له ، ومدى عبقريته من هذه المقارنة ، والشئ الواضح
الذي يدرك عليه أكبر نقاد الأدب الإنجليزي . إن جميع كتاب الرواية
الذين كتبوا وظهروا في عصر ديكنز لم يضارعوا ديكنز في قوة أسلوبه
ورائع أدبه . فقد تفوق عليهم بسعة الخيال وقوة الفكاهة .

كان تعليم ديكنز مقتصراً وضعيفاً . أما مداومته على القراءة وتعليمه
نفسه بنفسه ساعدته في جميع المواقف .

كما خلق من نفسه رجلاً عالماً ، فاضلاً جليلاً . وما أروع ما يقوله عنه الكاتب الإنجليزي الشاب : أر نست بيكر ، «ديكنز رجل من الشارع استطاع أن يصل إلى مصاف العباقرة بقوة إرادته الجبارة ! . . .»

ديكنز والنقاد

يقول « تان » في نقده للادباء الانجليز . . . بدأ ديكنز بكتابة مقالاته ورواياته وهي عبارة عن مقالات أحيكيت بعضها ببعض في مجموعة . وشخصياته لا تنمو أو تتغير كما يجب أن تكون عليه لو شاء لها ذلك . وليس لهذه الشخصيات تاريخ حياة تعرف أو تميز به . . .»

وقد يكون في هذا القول مغالاة . لأن لبعض شخصيات ديكنز تاريخ حياة ممتاز عرف به . كما في روايته « شازلويت » مثلاً وغيرها . . .»

والواقع انه كان يعمد عادة إلى إصلاح ما أفسده المجتمع ويبحث الثيبان والشابات على الزواج . . . وأن يعيش الجميع حياة سعيدة بعيدة عن المطامع الجشعة والاهواء الفانية . . .»

وهذه الناحية التي طرقها ديكنز في كتاباته أعجبت الكثيرين من قرائه كما يقول « برنارد دارون » في كتابه « ساعة السيد همفري » « إن ديكنز تعتمد أن يضحك القراء ويكسب جانهم ، ويعطيهم ما يريدونه حتى ولو اضطره ذلك إلى تغيير الفكرة التي تحتشد في دماغه أولاً ، ولا يرى مانعاً في تغييرها ليدخل السرور على قرائه . . .»

المذهب الواقعي وديكنز

هل كان ديكنز واقعياً يؤمن بالمذهب الواقعي ؟

الجواب سهل ميسور . فقد صور ديكنز أولاً صرورة حقيقية لحياته التي

كان يحياها في جميع رواياته من غير استثناء . في أمانة وصدق وعدم مبالغة أو مغالاة . فرواياته (بيكويك) و (دافيد كوبر فيلد) و (توقعات خطيرة) كلها صور حقيقية لحياته في أيام طفولته وصباه . وكل ما كتبه ديكنز وجميع الحوادث التي ذكرها حدثت في عالم الواقع لا في عالم الخيال كما يظن الكثيرون...

وعلىنا إذن أن نعتبر الرجل من ضمن هؤلاء الذين يدينون بمذهب الواقع . وأن العالم الذي خلقه للقراء هو عالم توصل إليه بسعة إدراكه . وعدم خروجه عن الواقع . فجاء عالم رواياته عالما واقعيا لا أثر للخيال فيه ...

ديكنز وناكري

المقارنة بين ديكنز وناكري مقارنة شاقة وعسيرة في آن واحد . ويقول لك ذلك معظم النقاد الانجليز . فقد سطع نجاحهما في سماء واحدة في وقت واحد . وحدث لهما مثلما حدث لفيلدنج وريتشاردسن في وقت ما . فالمقارنة بين الإثنين الأخيرين كانت شاقة وعسيرة أيضا . أو كما حدث لبردت وهاردي بعدهما ...

ولكننا مع هذا يمكننا أن نقول بحذر شديد أن الإثنين اختلفا في كثير من المذاهب والآراء والاتجاهات . فعالم ناكري لم يكن كعالم ديكنز . وقراء ناكري لم يكونوا في وقت ما قراء ديكنز وحتى اليوم نرى أن قراء ديكنز لا يقرأون لناكري ...

فديكنز مثلا كتب للشعب أو الجمهور وشارك الشعب الحياة .
« فهو رجل من الشارع بلغ مصاف العباقرة ... »

« وفي ميدان الحياة كان أحد المجاهدين ... »

أما ناكري فكان في الميدان أيضا ولكنه تسمى عنه أو بمعنى آخر كان

يقف موقف المتفرج لا موقف المحارب . أو على حد تعبير أحد الكتاب
الانجليز « كان بعيداً عن الجروح والآلام ، واكتفى بأن يتحدث عنها
عن بعد » أما عن ناحية أدبه وفنه فكان أديباً وفناناً لا يشق له غبار ،
تسلط على الأدب وأمسك بناصيته وتفنن فيه فاجاد وأبدع .. وبجانب هذا
كان ثاكري أيضاً رجلاً مثقفاً ثقافة عالية ممتازة ...

وستتناول في الباب العاشر من هذا الكتاب بقية بحثنا عن مكانة
ديكنز في الأدب في عصره . وتأثير هذه المكانة في الإصلاح الاجتماعي ،
والمقارنة بين ديكنز و ثاكري بعد متابعتنا سرد تاريخ حياته وعرض رواياته .

هذا هو مجمل تاريخ القرن التاسع عشر الانجليزي وتيارات الأدب التي
مرت به من ألمانية وفرنسية ، وبعض الأدباء الذين ظهروا فيه واثروا عليه .
ومن بينهم ديكنز ، موضوع هذا الكتاب ، وهذا سيمين القارىء لاشك على
فهم مجمل رواياته والدواعى التي كتبت من أجلها ...